المبحث السادس

الصـــرفـــة

المبحث السادس

الصــــرفــــة

الصرفة عند أهل اللغة: بدأت بحوث اللُّغويين والمتكلمين في قضية الإعجاز تتبلور بشكل محدد قرب نهاية القرن الثاني الهجري بعد فتنة خلق القرآن التي أثيرت في عهد المأمون بصورة وما خلفته هذه الفتنة من مآسٍ معروفة[1].

غير أنَّ هذه الفتنة امتدت فيما تلا ذلك من سنوات، وتمخضت عن اتجاهات فكرية عدة تمثلت في تبني المعتزلة ممثلين في النَّظَّام (ت 200هـ) لفكرة " الصرفة "، ومعناها: أنَّ إعجاز القرآن كان بصرف الله تعالى للعرب أنْ يأتوا بمثله، وبهذا القول قال كثير من المعتزلة بعد ذلك، بل وقد قال به بعض المفسرين والعلماء من غير المعتزلة، إلاَّ أنَّ الردّ على هذه الفكرة ميسور، لأن الإعجاز لو كان بالصرفة فمعناه أنَّ القرآن بذاته غير معجز، والإعجاز قائم على قدرة الله تعالى. وهذا ما لا تدل عليه آيات التحدي[2].

ورد على ذلك ابن عاشور ضمناً قائلاً: " فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توافر دواعيهم عليها "[3].

وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأنَّ الله تعالى صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي، لتقوم الحُجَّة عليهم، بمرأى ومسمع من جميع العرب، ويعرف هذا القول بالصرفة كما تقدم.

---

(1) يُنْظَرْ: تَارِيْخ بَغْدَاد ، لأَبِي بَكْرٍ أَحْمَد بن علي الْخَطِيب البَغْدَادي 74/10 .
(2) يُنْظَرْ: إعجاز الْقُرْآن، لأَبِي بَكْرٍ مُحَمَّد بن الطيب بن مُحَمَّد بن جعفر الباقلاني 8 /12.
(3) التَحْرِير والتَنْوِير، لمُحَمَّد الطَّاهِر بن عاشور، 103/1.

واختلف من قال بها، هل صُرفوا عن القدرة على معارضته، أو صُرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم، على قولين[1]:

أحدهما: أنهم صُرفوا عن القدرة، ولو قدروا لعارضوه.

والقول الثاني: أنهم صُرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم.

والصرفة إعجاز على القولين معاً في قول من نفاها وأثبتها فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة.

فإن قيل: فإن عجزوا عن معارضته بمثله لم يعجزوا عن معارضته بما تقاربه وإن نقص عن رتبته، والمعجز ما لم يمكن مقاربته كما لا يمكن مماثلته ؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن مقاربته تكون بما في مثل أسلوبه إذا قصر عن كماله والأسلوب ممتنع فبطلت المقاربة وثبت الإعجاز.

والثاني: أن المقاربة تمنع من المماثلة والتحدي، إنما كان بالمثل دون المقاربة[2].

ونسب القول بالصرفة إلى الأشعري فيما حكاه أبو الفضل عياض في كتابه الشفا وإلى النَّظَّام والشريف المرتضى، وأبي إسحاق الاسفرائني فيما حكاه عنهم عضد الدين في المواقف[3]. وقد عزاه إلى كثير من المعتزلة، وهو قول ابن حزم صرح به في كتاب الفِصَل[4].

والذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق، واقتصر عليه إمام الحرمين، وعليه الجاحظ وأهل العربية كما في " المواقف " ؛ فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ

(1) يُنْظَرْ: أَعْلام النبوة ، لأبي الْحَسَن علي بن مُحَمَّد بن حبيب الماوردي 121 .
(2) يُنْظَرْ: المصدر نفسه : 121 .
(3) يُنْظَرْ: شَرْح المواقف : 384/3 .
(4) يُنْظَرْ: الفصل فِي الملل والأهواء والنحل لأبي مُحَمَّد علي بن أَحْمَد بن سعيد بن حزم الظاهري(ت 548هـ) مكتبة الخانجي . القاهرة . (د . ت) : 7/3 .

القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغاً تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله(1).

بعد هذه المقدمة نقول:أن مادة (صرف) عند أهل اللغة يدور معناها حول الرجوع والتحول والتقلب، والمنع من جهة إلى جهة أخرى، فقد ورد في معجم "مقاييس اللغة " تحت مادة (صرف) قوله: " صرف " معظم بابه يدلّ على رجع الشيء، من ذلك صرفتُ القوم صرفًا وانصرفوا، إذا رَجَعْتَهم فرَجَعُوا، والصَّرف في القرآن: التوبة ؛ لأنه يُرجع به عن رتبة المذنبين والصَّرف: فَضْل الدّرهم على الدرهم في القيمة، ومعنى الصَّرف:أنه شيء صُرف إلى شيء، كأن الدِّينار صُرف إلى الدّراهم، أي رُجع إليها، إذا أخذت بدَله، ومنه اشتُقّ: اسم الصَّيرفي: لتصريفه أحدهما إلى الآخر، وصَرْف الكلام: تزيينه والزِّيادةُ فيه، وإنما سُمّي بذلك ؛ لأنه إذا زُيِّن صَرَف الأسماعَ إلى استماعه .(2)

وفي اللسان: "الصَّرف: ردُّ الشئ عند وجهه، صَرَفَهُ يَصْرِفُهُ صَرْفًا فانصَرَف، وصَارَف نفسه عن الشئ: صَرَفها عنه، ومنه: التصرُّفُ في الأمور، وصرّفنا الآيات: أي بيّناها، وتصريف الآيات: تبيينها، والصرّفُ: أن يَصرفَ إنسانًا عن وَجْهٍ يُريدُه إلي مَصرفٍ غير ذلك، وصرّفَ الشيء: أعملَه في غير وجهٍ، كأنه يصرفُه عن وجهٍ إلي وجهٍ، وتصرّف هو، وتصريف الرياح: صَرْفُها من جهةٍ إلي جهةٍ(3).

وفي " المفردات في غريب القرآن " تحت كلمة (صرف) الصرْف: ردُّ الشيء من حالة إلى حالةٍ أو إبدَالُهُ بغيره، يُقال: صرفتُهُ فانصرف، ومنه تصريف الكلام

(1) يُنْظَرْ: شَرْح المواقف ، لعضد الدِّين عَبْد الرَّحْمَنِ بن أَحْمَد الإيجي . (ت 756ه) . وشرحه أبو الْحَسَن علي بن مُحَمَّد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف ، 384/3 .
(2) يُنْظَرْ: مقاييس اللغة،لابن فارس 342/3 ، لسان العرب:99/9.
(3) يُنْظَرْ: لسان العرب 4/ 2434.

وتصريف الدراهم، ولنا به صريفٌ، و لكل خالص عن غيره صِرفٌ، كأنه صُرف عنه ما يشُوبه .[1]

وفي " معجم ألفاظ القرآن الكريم " جاء الصريف: السعف اليابس، والصّرف: ردّ الشيء من حال إلى حال، ومن الردّ تجيء استعمالات كثيرة: كصرف النقود أي تغييرها، والصرف بمعنى إخلاء السبيل، وصرْف القلوب: تحويلها عن الهداية[2].

الصرفة في الاصطلاح:

إنّ المفهوم المتبادر إلى الأذهان من القول بالصرفة، وهو أن الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم على معارضته، وهذا لا يؤيده القرآن الكريم نفسه، حيث أن آيات التحدي التي ذكرت فيه كثيرة ومتعددة، والقول بالصرفة مقيداً بهذا المفهوم لا يتناسب مع هذه الآيات؛ إذ كيف يتحداهم، ويطلب منهم الإتيان بمثله وفي الوقت ذاته يمنعهم من ذلك؟. إن هذا المفهوم للصرفة لا يناسب حال العرب الذين شوفهوا بالقرآن الكريم، وتُحدوا به؛ لأن من شرط التحدي أن يكون الخصم متمكناً من الجهة التي تتحداه بها، وإلا بطل التحدّي.[3]

إن المفهوم الصحيح لهذا المصطلح، والذي تطمئن إليه النفس، ويتفق مع آيات التحدي، ويتلاءم مع الحسّ اللغوي والإعجاز القرآني. هو أن الله تعالى صرف عقول الكفار عن فهم وتدبر آيات القرآن، بل حتى عن سماعه كما سجل ذلك عليهم قائلا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [4] وبذلك تم الحفظ لمعجزة القرآن الكريم من شغبهم وتشويشهم وتكذيبهم، ومن ثم نستطيع التوفيق بين المؤيدين للقول به، والمعارضين له.[5]

(1) يُنْظَرْ : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، 279.
(2) يُنْظَرْ: معجم ألفاظ القرآن الكريم ،70/2 .
(3) يُنْظَرْ : إعجاز الْقُرْآن ، للباقلاني 88/7.
(4) سورة فصلت الآية 24 .
(5) يُنْظَرْ : إعجاز الْقُرْآن للباقلاني :66/9.

ومما يؤيد هذا الفهم لهذا المصطلح، ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات كان من الممكن لو تنبّه لها أعداؤه لشوشوا عليه، ومن ثم نقول إن الله منعهم وصرفهم عن ذلك.[1]

فمن ذلك قوله تعالى:

1- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2].

إن الله عز وجل قد صرّح في هذه الآية بأن هؤلاء القوم لا يؤمنون مهما فعل معهم من ترغيب أو ترهيب، ولو فكروا قليلا في هذه الآية وأمثالها، وقالوا: يا محمد إذا كنت تدعي بأن هذا الكلام ليس من عندك، وأنك تزعم بأننا لم نؤمن لك بِناءً على هذا الكلام الذي تلقيه على أسماعنا، فإننا الآن نؤمن لك، ونشهد بك وهنا يكون الشغب والتشويش على هذه المعجزة القاهرة، ولكن الله عز وجل قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم و جعل على أبصارهم غشاوة.[3]

يقول صاحب إشارات الإعجاز معلقاً على هذه الآية " (الذين) هنا إشارة إلى صناديد الكفر أمثال أبي جهل وأبي لهب وأمية بن خلف، وقد ماتوا على الكفر... وأمثال هذا لمعاتٌ يتولد منها نوعٌ من أنواع الإعجاز القرآني[4].

2 ـ ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5].

3 ـ كذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[6] يقول صاحب كتاب " بصائر ذوي التمييز معلقاً على ذكر قوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) في هذه السورة وبيان سرّ تكرارها قائلا: هذا التكرار اختصار، وإيجاز، هو إعجاز ؛ لأنه

---

(1) يُنْظَرْ : دلائل الإعجاز:99/8.
(2) سورة البقرة الآية 6.
(3) يُنْظَرْ : إعجاز القران للرافعي:166.
(4) يُنْظَرْ إشارات الإعجاز92 .
(5) سورة البقرة الآية :145.
(6) سورة : الكافرون الاية :1.

نفي عن نبّيه (ﷺ) عبادة الأصنام في الماضي، والحال، والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضا، فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ستَّ مرّات فذكر لفظ الحال ؛ لأن الحال هو الزمان الموجود، واسم الفاعل واقع موقع الحال، وهو صالح للأزمنة كلها واقتصر من الماضي على المسند إليهم، فقال (ولا أنا عابد ما عبدتم)، ولأنّ اسم الفاعل بمعنى الماضي فعلٌ على مذهب الكوفيين[1]، (لكم دينكم ولي دين) على الإسكان والحركة فإن كان ما قبل هذه الياء ساكنا فالحركة فيها لا غير لئلا يلتقي ساكنان، فاقتصر من المستقبل على المسند إليه[2] فقال (ولا أنتم عابدون ما أعبد)، وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل، وهذا معجزة للقرآن الكريم وبرهان .[3]

4 ـ ومن ذلك أيضا قوله عز وجل: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [4]

فعبد العزى بن عبد المطلب عمّ رسول الله (ﷺ) والذي كان من أشدّ الناس عداوة له، لو أنه رجع عن عداوته لرسول الله (ﷺ) وأعلن إسلامه أمام قومه ولو نفاقاً، وقال لرسول الله (ﷺ): إنك يا محمد تدّعي بأن الإسلام يجبّ ما قبله، وكتابك يقول: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[5].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾"[6]

وتأييداً لكلامه عزّ وجلّ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [7]

ولذلك جاء قوله (وتب) بعد الجملة الدعائية لتؤكد ثبوت هذا الهلاك والخسران الذي أعدّه الله ـ عزّ وجلّ ـ لهذا الرجل، وأنه كائن له لا محالة، التباب:

(1) يُنْظَرْ : المقتضب 95/4.
(2) يُنْظَرْ : سر صناعة الإعراب :88/9.
(3) يُنْظَرْ: بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي 1/ 548 .
(4) سورة المسد الاية :1.
(5) السيرة النبوية لابن هشام 33/4، وسورة الأنفال الآية:38 .
(6) سورة الأعراف الآية :179.
(7) سورة محمد الآية :24.

الهلاك. ومنه قولهم: أشابة أم تابة، أي: هالكة من الهرم والتعجيز والمعنى: هلكت يداه، لأنه فيما يروى: أخذ حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ) وَتَبَّ وهلك كله. أو جعلت يداه هالكتين. والمراد: هلاك جملته وَتَبَّ،وكان ذلك وحصل[1].

يقول الإمام محمد عبده (في تفسيره جزء عم)، إن مجئ قوله (وتب) بعد قوله (تبت يدا أبي لهب) لبيان أن ما ادعى به عليه لم يكن لمجرد نكايته وإظهار مقته وشدة الغضب عليه، كما جرت به سنّة العرب في كلامهم، بل هذا دعاء، فيه ما تعرفه العرب، وفيه مع ذلك أنه أمر واقع، فإن أبا لهب قد هلك أو خسر بالفعل، والواو في قوله (وتب) أي: وهو قد تب.[2]

وأمثال تلك الآيات التي تضمنها القرآن الكريم من الإخبار عن هؤلاء القوم، وموقفهم منها كثيرة جداً وإنما ننبّه بالبعض على البعض. هذا، وأعتقد أنه لو فهم وجه الصرفة بهذا المفهوم الذي ذكرناه ورجحناه له، لتغيرت النظرة له، وكان يمكن قبوله وجهاً من وجوه الإعجاز المتعددة للقرآن الكريم، ومن ثم يسلم من الاعتراض الذي وُجه إليه من كثير من العلماء السابقين[3].

---

(1) يُنْظَرْ:الكشاف 88/4.
(2) يُنْظَرْ: تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ، 174 .
(3) يُنْظَرْ: الصرفة وجه من وجوه الإعجاز عرض ـ وتحليل ـ ونقد د.احمد محمد 22-33